الزوايا التواتية وأدوارها التعليمية للغة العربية

نسيمة سعيدي - سيدي محمد غيتري -عبد القادر براكو -نعيمة بويعقوب

تمهيـــــــد:

عرف نظام الحياة في البلاد العربية تنوعاً وإحكاماً كبيرين وفي جوانب مختلفة، فنجد في المجالين الثقافي والتعليمي الكتاتيب والمدارس القرآنية التي خرَّجت أجيالاً من العلماء والمصلحين الاجتماعيين.

وفي المجال الاجتماعي نجد الكثير من المظاهر الدالة على التكافل والتضامن من بينها تأسيس الأوقاف - عوائدها موجهة إلى المصالح العامة- والتي كان لها الفضل الكبير في تأسيس الزوايـــا، وهذه الأخيرة جمعت بين الوظيفتين الاجتماعية والعلمية، بحيث كان لها الأثر البارز في الحفاظ على الهوية العربية والإسلامية.

وحرصاً منّا على بيان دور الزوايا التعليمي رأينا تقديم هذا البحث الموجز مركزين على زوايا منطقة توات، مبينا طرق ومناهج التدريس بها، وما يلحق بذلك من الأنشطة العلمية المختلفة.

- تعريـــف الـــــزوايا:

كلمة الزاوية تعني تيكي(TEKKIE) بالتركية، وخونق (AKNAOUOK) بالمصرية، وخالتيرخان (KHANE-KALEUTER) في آسيا الوسطى وخانق KHANAK في الهند،

فتعريف الزّوايا اللغوي من "زوى" الزَّيُّ مصدَرُ زَوَى الشَّيْءَ يَزْوِيهِ زَيًّا وزُوِياً فانْزَوَى، نَحّاهُ فَتَنَحَّى.

وزَوَاهُ: قَبَضَهُ. وزويت الشَّيْءَ: جَمَعْتُهُ وقَبَضْتُهُ. وفي الحديث: إنَّ الله تعالى زَوَى لي الأَرْضَ فأُريتُ مشارِقَها ومغَارِبها؛ زُوِيت لي الأَرْضُ: جُمِعَتْ؛ ومنه دُعاءُ السَّفَرِ: وَازْوِ لَنَا الْبَعِيدَ، أَي اجْمَعْهُ وَاطْوِه.

وَزَوَى مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ فَانْزَوَى: جَمَعَهُ فاجْتَمَعَ وَقَبَضَهُ؛

قال الأعشى:

يَزِيدُ يَغُضُّ الطَّرْفَ عنْدي كَأَنَّما
زَوَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَلَيَّ المَحَاجِمُ

وانْزَوَى الْقَوْمُ إِلَى بَعْضِهم إلى بَعضهم، إذا تَدَانَوْا وَتَضَامُّوا. والزَّاوِيَةُ: وَاحِدةُ الزَّوَايَا

أمَّا التعريف الاصطلاحي للزوايا فيستمد ملامحه بشكل كبير من تعريفها اللغوي فها هو محمد الطاهر فضلاء يقول عنها: " إنَّ الزاوية ولفظها يحمل معنى من معاني الانزواء والانقطاع للعبادة في بادئ الأمر، ثم لتحفيظ القرآن الكريم في مرحلتها الثانية، ثم لتلقين مبادئ العلوم الدينية التي تؤهل الطالب لأن يكون فقيهاً في الدين عارفاً بما ينبغي معرفته من أصول وفروع الشريعة".

والزاوية هي مؤسسة دينية إسلامية ذات طبيعة اجتماعات روحية وهي تختلف حسب وظائفها ونشاطها فهي بناء أو طائفة من الأبنية ذات طابع ديني.

وأخذت الزاوية في شمال إفريقيا معنى يطلق على بناء ديني شبيهة بمؤسسة تعليمية تحتوي في الغالب على قبة وغرفة للصلاة وضريح لولي صالح وغرف لتحفيظ القرآن واستقبال الزائرين. ويؤكد الأستاذ سعد الله أن بناءها يختلف عادة عن بناء المسجد والمدرسة، فالزاوية غالباً ما تجمع بين هندسة المسجد والمنزل وهي في الجملة قصيرة الأسوار منخفضة القباب قليلة النوافذ، وإذا كان لها مسجد فهو في الغالب بدون مئذنة فالزاوية من الناحية الهندسية ليست جميلة، شكلها يوحي بالعزلة والتقشف والهدوء وتعرفها إيفون تيران: «أنها مدفن عائلة مرابطين أي عائلة تملك الأصالة الدينية الوراثية، ويأتي إليها الناس لأداء الصلاة، ثم من أجل التعلم والعلاج وتحظى تعليماتها بثقة كبيرة خصوصاً وأنها تقوم على أسس خرافية وغير عقلانية».

- نشأتهـــا وتطورهـــــا:

نَشَأت الزاوية في المشرق العربي وكان يقصد بها المسجد الصغير وذلك للتمييز بينها وبين المسجد أو الجامع وقد استقر ذلك المفهوم ولم يتغير، لكن في المغرب العربي ظهرت في القرن الثالث عشر ميلادي حلت محل الرابطة والرباطات.

فالنظام القائم في الرباط شبيه إلى حد كبير بنظام الزوايا اليوم، ويربط أبو القاسم سعد الله الزوايا بالرباطات التي قام بها المرابطون فيقول في حديثه عنها: " وقد عرفنا أنّها أصلاً كانت رباطاً لجهاد، ثم تطورت إلى مراكز للتعليم والعبادة".

ويشير ابن مرزوق التلمساني المتوفى عام ٧٨١هـ/١٣٧٩م والذي خص الفصل الثاني والأربعين من رسالته عن "أبي الحسن علي المريني" المسماة المسند الحسن، خصه للكلام عن الزوايا التي شيدها هذا السلطان، وقد ذكر التلمساني أن الزاوية هي ما يعرف في الشرق باسم الرباط أو الخانقات، وكلمة خانقات كانت تطلق بصفة خاصة على المنشآت الصوفية التي يُرَدُّ أصلها بصفة عامة إلى التصوف الاسلامي.

أمّا في المغرب فكانت تعرف في بادئ الأمر "بدار الكرامة" كالتي بناها الخليفة يعقوب المنصور الموحدي في أواخر القرن ٦هـ بمراكش، ثم أطلق المرينيون على الزوايا التي بنوها في عهدهم في القرن ٧/٨هـ اسم "دار الضيف"، ومن بينها الزاوية التي أسسها السلطان أبو عنان المريني خارج مدينة سلا في منتصف القرن ٨هـ.

وعلى هذا الصعيد اشتهرت مدارس عديدة منها مثلاً في المغرب الأقصى: مكناس، فاس، وجدة وفي المغرب الأدنى: تونس والقيروان وفي المغرب الأوسط (الجزائر) نجد: قسنطينة، بجاية، وهران، ورقلة.

يعد إقليم توات الكبرى بولاية أدرار -الذي يضم ثلاثة مناطق متميزة (تيدكلت، توات الوسطى، قورارة) حسب الدراسات التاريخية- منارة للعلم وسط الصحراء الشاسعة رغم بعده عن مركز العمران في المشرق والمغرب؛ أمَّا بتوات فقد نشأت الزوايا على يد رجال عرفوا بالعلم والتقوى والصلاح، والدارس لتاريخها في المنطقة ونشاطها بالأقاليم يجدها عريقة عراقة هذه الأقاليم.

أ- نشـــأة الزوايا التواتية:

يعود تاريخ الزوايا إلى تاريخ نشأة المنطقة التواتية (إقليم توات الكبرى) والباحث عن تاريخ نشأة الزوايا سيجده في تاريخ نشأة توات، فتوات هي الزاوية والزاوية هي توات، والأدلة على ذلك كثيرة ويتجلى في اسم الزاوية وقد أطلقهذا الاسم على الكثير من قرى البلديات، وهذا أكبر دليل على العناية التي كان يوليها سلفنا الصـــــالح لهذه المؤسسة الـــتي أسسها "رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللّه عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِر".

فيذكر المؤرخون أن أول زاوية بإقليم توات هي زاوية السيد مولاي سليمان بن علي الذي حل بتوات سنة ٥٨٠هـ، وأسس الزاوية سنة ٥٨٥هـ، ثم تتابع ظهور الزوايا بالمنطقة فكانت زاوية كنته التي أسسها السيد محمد بونعامة، وزاوية سيدي أبي الأنوار التتلاني المتوفى ١١٦٨هـ.

ومع مطلع القرن العشرين شهد إقليم توات تأسيس مدارس قرآنية داخلية تكفلت بطلبة العلم من جميع مجالات وخصصت لها أوقاف وأحباس، حيث كانت البداية أثناء الاحتلال الفرنسي مع سيد أحمد ديدي البكرية ثم مدرسة تلميذه الحاج أحمد ديدي البكرية ثم مدرسة تلميذه الحاج محمد بن الكبير ومدرسة مولاي أحمد الطاهري، وبعد الاستقلال انتشرت المدارس الداخلية عبر كامل الإقليم التواتي ومن بينها مدرسة سيدنا عبد الله بن العبّاس رضي عنه – أنموذج الدراسة- والتي ساهمت كغيرها من المدارس تخريج أجيال من الطلبة كان لهم الدور البارز داخل إقليم توات وخارجه، إلاّ أنَّ بعض الزوايا والمدارس بدأت تشهد تراجعاً في أعداد التلاميذ بها لعوامل داخلية وخارجية عديدة.

ب - أمـــــاكنها وأعلامـــــــها:

في البداية لا بد أن نشير إلى قطبين كان لهما أثر كبير في نشر العلم والمعرفة بمنطقة توات وهما الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي والشيخ محمد بن الكبير رحمهما الله، فهذا الأخير كانت منارته ذات إشعاع علمي، حيث كان له الفضل الكبير في نشر العلم في سائر ربوع الوطن وخارجه.

لقد ارتبط المجتمع التواتي بالزاويا ارتباط عقيدة وفكرة أي أنها صارت جزءً من كيانه أو وجدانه، بحيث أن جل القصور التواتية تحتوي على زاويا ولذلك قال المؤرخون: " إنَّ توات هي الزاوية والزاوية هي توات".

ج- أنواعهـــا ومميزاتهـــــا:

يوجد بمنطقة توات نوعين من الزوايا:

- زوايا حسب النشأة
- زوايا حسب الوظيفة.

١ / زوايا حسب النشأة: وتنقسم إلى فرعين:-

الفرع الأول: زوايا تمَّ بناءها على أرض اشتريت من قبل مؤسس الزاوية خارج القرية، كما هو الحال بزاوية سيدي البكري التي قرب مدينة تمنطيط، وزاوية تينلان.

الفرع الثاني: هي زوايا تبقى داخل القصر حيث تكون أملاكها داخله مثل زاوية زاجلو، التي أسسها حسب المصادر التاريخية الشيخ سيدي البكري الذي درس بأوقروت على يد سيدي الشيخ علي النحوي الأوقروتي، وأسس زاويته المشهورة بزاجلو (ت ١١١٨ه)، وزاوية سيدنا عبد الله بن عباس رضي عنه للقرآن الكريم والعلوم الشرعية بـبلدية "أسبع" ولاية أدرار (الزاوية الأنموذج)، التي افتتحت أبوابها وبمساعدة سكان البلدية سنة ١٤٠٦ه/ ١٩٨٧م على يد شيخها الحالي بن موسى محمد وهو خريج مدرسة الشيخ سيدي الحاج محمد بكاري ببني مهلالتيميمون.

٢ / زوايا حسب الوظيفة: وتنقسم إلى ثلاثة فروع:

الفرع الأول: ويتمثل في زوايا العلم ووظيفتها في تعليم القرآن بمختلف الأعمار للأطفال وتكون عادة قرب المسجد، وهي عبارة عن مجموعة من الأبنية في سائر القصور التواتية، ويطلق عليها أسماء مختلفة كـ "الجامع" بتوات، و"أقربيش" بتيدكلت، و "المحضرة" بتنقورارين.

الفرع الثاني: ويتمثل في زوايا التربية وهي مجموعة من الزوايا التي أسسها رجال التصوف مع بداية القرن ٨ه، كأماكن للعبادة والتربية والتعليم، باعتبار أن التصوف علم الباطن دون إغفال الجانب الظاهري في الشريعة بل أقام الصوفية على التصوف أو العلم الديني كما يسمونه على أسس علمية وأخلاقية وهذا ما يتجلى في مجموعة المخطوطات التي تركها الشيخ المختار الكنتي في جميع الزوايا التي أسسها.

الفرع الثالث: ويتمثل في زوايا الإطعام والإيواء بحيث تقوم هذه الوظيفة في الزوايا بجميع أنواعها، فتستقبل الضيوف والزوار وتوفر لهم الأكل الإيواء طيلة إقامتهم وشعارها في ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَآءً وَلاَ شُكُوراً﴾.

أما شعار شيوخ هذه الزوايا فهو مصداقاً لحديث المصطفى عليه الصلاة والسلام: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعوا له".

وهناك تصنيف آخر للزوايا التواتية بحيث تقسم إلى ثلاثة أنواع: زوايا الضيافة، زوايا العلم وزوايا الضيافة والعلم معاً. وتنتشر هذه الأخيرة بشكل كبير على كافة تراب الإقليم، بحيث أن الضيف الذي ينزل في أي قصر من قصورها يستضاف بالزاوية التي يعمل سكان القصر على تمويلها، ومن الزوايا التي شاع صيتها بالإقليم ولها أملاك أو أوقاف.

التعليم في توات:

كان التعليم الديني متوفراً ومتاحاً لكل فئات المجتمع التواتي، خاصة في المرحلة الابتدائية التي كانت على مستوى القصور التواتية، وكانت تمارس ضمن مؤسسات تعرف باسم (أقربيش)، والتي غالباً ما تمارس في أماكن ملحقة بالمسجد، وتفتح الكتاتيب أبوابها لكل أطفال القرية أو القصبة، أما المرحلة الثانية من التعليم فتكون في المدارس الفقهية أو المدارس أو الزوايا.

١ – مراحل التعليم:

يقسم التعليم داخل توات إلى ثلاثة مراحل أساسية هي:

المرحلة الأولى:

تتم هذه المرحلة في الكتاتيب أو ما كان يعرف عند سكان القصور " أقربيش" أو المحضرة"، وكانت أغلب الكتاتيب ملحقة بمسجد القصر أو القصبة، ولا تخلو منها أي منطقة من الإقليم، وقد كانت هذه الكتاتيب"" بمثابة مدارس ابتدائية منتشرة خلال العهد العثماني في كل القطر الجزائري وهذا ما أشار إليه أبو القاسم سعد الله بقوله" ...كثرت المدارس الابتدائية حتى كان لا يخلو منها حي من الأحياء في المدن ولا قرية من القرى في الريف بل أنها كانت منتشرة حتى بين أهل البادية والجبال النائية... "، وكانت مهمة التعليم في الكتاتيب منة اختصاص الأئمة الذين يضطلعون بتعليم الصغار،

وبالمقابل يتحصلون على هدايا وامتيازات تمكنهم منة التصرف في أوقاف المسجد من بساتين وأملاك عقارية.

يلتحق بالكتاتيب الأطفال صغار السن ابتداءً من الرابعة في معظم الأحيان، ومن العادات التي تقام عند التحاق الطفل بالكتاتيب في إقليم توات حفل رمزي يلبس خلاله الطفل أجمل ثيابه ويحضر معه والده إلى الكتاب ويصحبا معهما التمر والحليب –وهناك من العائلات من تقوم بإعداد وجبة غذاء للشيخ وتلاميذ الكتاب- ثم يتقدم الطفل باللوحة والدواة" التي يجلبها معه إلى الشيخ الذي بدوره يتناولها منه ليكتب عليها آيات من الذكر الحكيم تكون من آخر سورة الإسراء ((قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً))[الإسراء : ١١٠]، ثم يخط عليها الحروف الأولى (أ، ب، ت، ث...)، ويمر الطفل خلال هذه المرحلة التعليمية الأولية في تعلم الكتابة والإملاء بثلاث مراحل أساسية وهي:

- مرحلة المحاكاة: وفيها يتعلم الطفل طريقة الكتابة: عن طريق الكتابة، عن طريق محاكاة الطفل ما يكتبه له شيخه بقلم الرصاص على لوحته فيعيد الطفل عليها باستعمال القلم والدواة.
- مرحلة النقل الإيضاحي: يؤتى بطبق مملوء بالتراب الطاهر، حيث يقوم الشيخ بكتابة آيات عليها، يقوم بعدها الطفل بنقل تلك الآيات على لوحته.
- مرحلة الإملاء: بعد تعلم الكتابة ين تقل الطفل إلى مرحلة الإملاء، حيث يملي الشيخ على الطفل آيات قرآنية يقوم بعدها بتدوينها على لوحته، وبعد الانتهاء من التدوين براجع الشيخ ما دونه الطفل ليصحح له الأخطاء الإملائية، وبعد تعلم طريقة الكتابة يضيف الشيخ للتلميذ بعض المواد الأخرى للحفظ يدونها أسفل اللوحة يفصل بينها وبين الآيات القرآنية بخط، وأول ما يبتدئ به العقائد وأحكام الصلاة والفقه، وأهم المتون المدرّسة في هذا المجال متن ابن عاشر، ومتن الأجرومية.

ومن العادات التي تتبع الطالب خلال هذه المرحلة هي إقامة مأدبة غذاء لتلاميذ الكتّاب وذلك عند بلوغ الطفل في مرحلة حفظ القرآن عند إحدى السور الآتية (لم يكن الذين كفروا، سبح اسم ربك الأعلى، عم، قل أوحي إلي، الملك، الرحمن، طه، التوبة)، وبعد ختم القرآن وحفظه يقام للطالب حفل بهيج يحضره معلمو القرآن وأئمة المساجد وأعيان القصور المجاورة وخلال الحفل يلبس الطالب اجمل ثيابه ويحضر معه لوحته التي يسلمها لشيخه ليدون عليها آيات من القرآن الكريم بعد البسملة، وعادة ما تكون الآية الأولى من حزب يستبشرون ثم يقوم بتسليم اللوحة لأئمة المساجد الحاضرين ليدونوا بدورهم آيات إلى غاية انتهاء الثمن من هذا الحزب، تسلم اللوحة للطالب الذي يطوف به الحاضرون داخل المسجد وفي شوارع القصر فيقدم له سكانه هدايا غابا ما تكون نقوداً، وفي نهاية هذه المرحلة يكون الطالب قد حفظ القرآن الكريم وأخذ بعض المعارف الفقهية واللغوية كابن عاشر والاخضري والأجرومية.

أمّا في ما يخص توقيت الدراسة داخل الكتاتيب فإنها تبدأ من صلاة الصبح غلى الزوال وفي هذه الفترة يقوم الطالب بتدوين آيات قرآنية على لوحته ومراجعتها مع شيخه، أما الفترة المسائية فتبدأ بعد صلاة الظهر إلى ما بعد صلاة العصر، وخلالها يقوم الطالب بحفظ ما دونه من آيات قرآنية على لوحته ثم يقوم باستظهارها مع شيخه، أما بعد صلاة العشاء فيقوم جميع الطلبة بتلاوة الحزبين الأخيرين من القرآن الكريم وهذا في سائر الأيام باستثناء الخميس والجمعة والمناسبات.

المرحلة الثانية:

وهي مرحلة أعلى من سابقتها، تتم في الزوايا والمدارس الكبرى والمجالس العملية لدى العلماء والفقهاء، ويكون الطالب خلال التحاقه بها حافظاً لكتاب الله مع بعض العلوم الأخرى، وقد برزت في هذا المجال حواضر معينة اشتهرت بالزوايا والمدارس الدينية كتمنطيطوتلان وملوكة وزاوية كنته، وتعد المدرسة البكرية بتمنطيط أقدم هذه المدارس، إذ يرجع تأسيسها إلى القرن العاشر الهجري.

ويتم التدريس اليومي في صحن الزاوية والمسجد، حيث يلتف الطلبة حول الشيخ لدراسة المواد المقررة وعادة يبدأ الشيخ بقراءة الرسالة لأبي زيد القيرواني في الفقه، ثم ينتقل إلى النحو والصرف من خلال شرحه للأجرومية والألفية ولامية الأفعال لابن مالك والفرائض من الرحبية.

ويقسم التعليم خلال هذه المرحلة إلى ثلاث مستويات رئيسية:

- المستوى الأول: يدرس في التوحيد والمنطق "الأوجلي" و"متن السنوسية

الصغرى" وفي الفقه يدرس "متن ابن عاشر" و"شرح القرطبي" و "متن العشماوية" أما النحو والصرف فيدرس فيهما "الأجرومية".

- المستوى الثاني: يدرس التوحيد والمنطق "جوهرة التوحيد" و"متن السنوسية الكبرى" وفي الفقه "أسهل المسالك" و"رسالة القيرواني"، و"متن الرحبية" في الميراث ونظم "مقدمة ابن رشد" أما اللغة فيدرسها من خلال "ملحمة الإعراب" للحريري.
- المستوى الثالث: في المنطق يدرس "السلم المرونق"، و"لامية الزقاق" وفي اللغة "ألفية ابن مالك" و"لامية الأفعال" و"مغني اللبيب".

ذكرنا سابقاً بأن التدريس يتم في صحن الزاوية، حيث يلتف الطلبة حول الشيخ على شكل دائرة ومع كل منهم لوحة وكتب، فيبدأ الطالب بقراءة جزء من المتن وأبيات من المنظومة، ثم يعقب عليها الشيخ في الشرح والطلبة ينصتون ويسجلون ما يقوله الشيخ، وقد تتخلل هذه التعقيبات انتقادات ومقارنات تضفي على الدرس طابع النقاش العلمي، وهو ما كان يقوم به الشيخ عمر بن عبد القادر التنلاني، الذي كان أثناء الشرح يقوم بنقد ما تطرق له كشرح الزرقاني لمختصر خليل، والمناوي في تدريس "الجامع الصغير" وغيرهما من المصنفات التي كانت تدرس بالزوايا.

المرحلة الثالثة:

هي مرحلة التعليم العالي وتتم في المعاهد الإقليمية، ويلتحق بها الطلبة ذوي الهمم العالية الذين لهم قدرة على تحمل مشاق وصعاب التنقل ومفارقة الأهل والخلان، مع إمكانات مادية جيدة وهو مالم يتوفر إلا لبعض العائلات العلمية الميسورة، ومن بين التواتيين الذين انتقلوا خارج الإقليم تحثنا المصادر البكرية عن الشيخ أمحمد بن أبي محمد الأمرينيالتمنطيطي أنّه درس عن أربعة وعشرين شيخا عالما من مدينة فاس، أما ابنه عبد الكريم بن أمحمد فقد أخذ العلم وتحصل على إجازة من طرف مشايخ عدة نذكر من بينهم الشيخ المقري التلمساني والشيخ علي الأجهوري المصري والشيخ سعيد بن إبراهيم قدورة الجزائري وأحمد بابا التنبكتي... وغيرهم، ومما يذكره عبد الكريم بن أمحمد في رحلته العلمية أثناء دراسته عند شيخه عبد الحكم بن عبد الكريم الجراري قوله " ...قرأت عليه متن الأجرومية وجملة صالحة من ألفية ابن مالك في النحو وأخذت عنه مختصر خليل من أوله إلى آخره شرحاً بفتح الجليل والمواق، وسمعت منه صدرا من التفسير وأبواباً من البخاري، وقرأت القرآن بحرف نافع..."، أما الشيخ سيدي البكري بن عبد الكريم فقد درس في أوقروت والجزائر العاصمة ومصر على يد الإمام الخرشي، كما درس الشيخ عمر بن عبد القادر التنلاني في جامع القرويين بفاس، وأيضاً عبد الرحمن بن عمر التنلاني الذي انتقل إلى بلاد التكرور لأخذ العلم، وبعد تحصل الطالب على الإجازات المختلفة يعود إلى توات ليتولى مهام رفيعة كالقضاء والإفتاء والتدريس...وغيرها.

- الإجازات: عرَّفَ الأستاذ أبو القاسم سعد الله الإجازة بأنها " شهادة كفاءة يستحق بها المجاز لقب الشيخ أو الأستاذ في العلوم المجاز بها" ويتحصل المجاز على الإجازة بعد القراءة على الشيخ المجيز وملازمته أياماً وشهوراً أو أعواماً إن تطلب الأمر ذلك، وقد تحصل المشائخالتواتة على إجازات عديدة من مختلف الحواضر الإسلامية، ونجد هنا الشيخ عبد الكريم بن أمحمد تحصل على إجازة من الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني في علم الحديث سنة ١٠٣٣هـ/١٦٢٤م، كما خص الشيخ عبد الرحمن الجنتوري عبد الرحمن بن عمر التنلاني بإجازة جاء فيها "... ثم أني استجزته كما استجاز شيخنا أبا حفص المذكور بأنه إجازة عامة وخاصة، فأجابني كما طلبته لحسن ظنه بي رحمة الله ومحبته لي..." وكانت بعض الإجازات تتضمن سلسلة الأشياخ أو السند وهذا ما وقفنا عليه في إجازة الشيخ أحمد حبيب البلبالي للشيخ سيد أحمد ديدي في صحيح البخاري وهي تتضمن سلسلة الأشياخ إلى غاية الإمام البخاري.

٢.مناهج التدريس:

منهجية تحفيظ القرآن الكريم: تتمثل منهجية تحفيظ القرآن الكريم سواء في الكتاتيب أو المدارس القرآنية على مرحلتين، حيث يقوم الطالب في العرض الأول بتدوين القرآن على لوحته ثم استظهاره على شيخه إلى غاية إتمام القرآن، أما في العرض الثاني فيبتدئ الطالب من سورة البقرة ويكتب في لوحة كل يوم ثمن من القرآن بنفس الطريقة حتى يتم استظهار القرآن كاملاً ومتقناً مع شيخه.

منهجية تدريس الحديث النبوي:

تخصص أشهر معينة لدراسة الحديث النبوي تكون عادة من شهر شعبان إلى ذي الحجة، ويستعمل لتدريس الحديث النبوي "صحيح البخاري" وموطأ الإمام مالك بن أنس، و"صحيح مسلم"، و" الشفا" للقاضي عياض، ومما يشترط في مدرس الحديث النبوي هو أن يكون متحصلاً على إجازة في هذا العلم، لما يتميز به من مصطلحات ورموز لا يتمكن من فهمها وتحليلها إلا من له دراية بذلك.

وتكتسي دراسة صحيح البخاري أهمية بالغة في إقليم توات، إذ يقام عند ابتداء قراءته حفل بهيج يصحب بمأدبة غذاء لجميع المدعوين والحضور وفي مقدمتهم الشيوخ والفقهاء، وتكون الانطلاقة بالشروع في قراءة الصحيح من طرف شيخ المدرسة القرآنية، الذي يقوم بترديد دعاء الافتتاح، ثم يبدأ بعد ذلك بسرد سند الانطلاقة الأول وبعد اتمام هذه الجلسة يختم اليوم الأول بالدعاء والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهكذا تمر الأيام من الانطلاقة إلى غاية اختتام قراءة صحيح البخاري، وعند ختم صحيح البخاري، يقام حفل آخر يقرأ فيه الصحيح عادة من باب "كلام الرب مع أهل الجنة" وفي نهايته تردد عبارات "سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم" من جميع الحاضرين مائة مرة، والمدرسة البكرية بتمنطيط من أكثر المدارس اعتناءً بدراسة صحيح البخاري فهي تخصص كل سنة قمرية ما يزيد عن الشهر لقراءته وتدارسه وذلك من ١٧ شعبان إلى غاية ٢٦ رمضان، أما وقت قراءته فتكون بعد صلاة الصبح، ثم عند الضحى وبعد صلاة الظهر، ثم بعد صلاة العصر.

منهجية تدريس الفقه والنحو والعلوم الأخرى: بعد انتقال الطالب إلى المدرسة القرآنية يشرع أولا بدراسة علم العقائد والتوحيد، وذلك حتى ترسخ في ذهنه، خاصة وأنه تلقى المبادئ الأولية في هذا العلم من طرف معلم القرآن في قريته، وأول كتاب يدرسه في هذا العلم هو منظومة " الأوجلي" ثم "جوهرة اللقاني"، ثم ينتقل إلى دراسة الفقه من خلال متن "الأخضري"، وبعدها يأخذ فقه السهو في الصلاة من متن "متن العبقري "لمؤلفه الشيخ محمد بن أب المزمريالتواتي، وبعدها ينتقل الطالب لدراسة "المرشد المعين"لابن عاشر عاشر (ت١٠٤٠ه/ ١٦٣١م) ثم يدرس العزية والعشماوية والرقعي وأسهل المسالك والرسالة لأبي زيد القيرواني ومختصر الشيخ خليل ثم التحفة العاصمية.

ويدرس علم النحو بنظام "الوقفة" وهي تتمثل في بيت أو بيتين من الألفية يحفظهما الطالب كل يوم ثم يستظهرهما في حضرة الشيخ أثناء الدرس لمناقشتها، لتكون تلك الوقفة هي أساس، ولكل طالب وقفة في مجال معين قد تقصر حسب إمكانات كل طالب.

٣- مدة الدراسة:

أما فترة الدراسة خلال هذه المرحلة، فهي غير محددة بزمن معين، وإنما ترجع في الأساس إلى إمكانيات الطالب ومدى قدرته على استيعاب المواد المقررة، وبعد إتمام الطالب للمقررات الدراسية يعقد له امتحان أمام شيخه، وبعد نجاحه يقيم له شيخه مع زملائه حفلة رمزية بهذه المناسبة، تقرأ فيها السردة ويرتدي الطالب خلالها أجمل ثيابه ويجلس في مكان عالٍ وتقدم له التهاني من زملائه.

وعنِ المدة الدراسية يحدثنا عبد الحميد بكري في النبذة أن الشيخ سيدي البكري بن محمد العالم درس في أنزجمير لمدة سبع سنوات، وأصبح بعدها عضواً في مجلس الشورى وعبد الله بن محمد بن عبد الكريم مكث بملوكة مدة ثلاث سنوات رجع بعدها بإجازة كاملة، أما الشيخ العلامة الحاج محمد بن الكبير فقد لازم شيخه سيد احمد ديدي مدة ثلاث سنوات، تحصل خالها على إجازة من شيخه، وبعد نجاح الطالب في دراسته وتخرجه يتوجه إما لطلب العلم في مكان آخر ذي مستوى أعلى، أو يتجه لتحصيل رزقه عن طريق عن طريق العمل، وذلك بإمامة الناس أو التدريس في الكتاتيب القرآنية.

نلاحظ من خلال ما تقدم أن نجاعة طرق التدريس في الزوايا ترجع إلى عدة أمور مهمة منها:

١- إخلاص النية في الطلب وهو قدر مشترك بين الشيخ وتلاميذه.
٢- الصبر والتضحية حيث نجد أن أغلب التلاميذ يعيش بعيدا عن أهله منقطعا للعلم وتحصيله
٣- تدريس المتون بطريقة فردية في حلقة جماعية ييسر للتلميذ الإلمام بمسائل مختلفة من خلال سماعه لوقفات زملائه السابقين وكذا مراجعته لما فاته من خلال وقفات زملائه اللاحقين.
٤- التدرج الكمي والنوعي في تناول المتون، حيث إن ترتيبها ليس ترتيباً عشوائياً وإنما هو ترتيب تراعى فيه مستوى التلميذ وقدراته.

في الأخير يمكن تلخيص الأدوار التعليمية للزوايا التواتية في النقاط التالية:

- "نشر العلم الشرعي والترغيب في تبليغه تحقيقاً لمبدأ التفقُّه في الدين.
- "الاهتمام الخاص بحفظ القرآن الكريم والتشجيع عليه وتأليف المتون المساعدة على تعلم رسمه (الرسم العثماني) وضبطه.
- "الاهتمام بالتعليم عن طريق الإجازة في مختلف الفنون خاصة في الفقه، الحديث واللغة.
- "الاهتمام بعلوم اللغة العربية باعتبارها ضرورية لفهم نصوص القرآن والسنة وبذلك استطاعت الزوايا أن تساهم في الحفاظ على الهوية إبان الاستعمار.

المصادر والمراجع:

١- بالعربية:

- القرآن الكريم
- ابن منظور: لسان العرب.
- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي (١٥٠٠- ١٨٣٠م)
- إيفون تيران: المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة (المدارس والممارسات الطبيّة والدين١٨٣٠-١٨٨٠)
- ليفي بروفنسال: "الزوايا" ترجمة الشنتاوي وآخرون.
- عبد العزيز شهبي:الزوايا والصوفية والغرابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر.
- محمد الطاهر فضلاء: دعائم النهضة الوطنية الجزائرية التعليم الديني والإصلاح.
- محمد باي بلعالم: الرحلة العالية.
- مولاي أحمد الطاهري الإدريسي: نسيم النفحات من أخبار علماء توات ومن بها من الصالحين والعلماء الثقات
- محمد دبّاغ:دراسات في التراث.
- أحمد جعفري: محمد بن أبّ المزمري.
- الصديق حاج أحمد: الدراسات اللغوية.
- محمد الصالح حوتية: توات والأزواد.
- حسن زقور: أبحاث في المخطوطات.
- مجلة القبس.

٢- بالفرنسية:

- XAVIER Coppolani et Octave Depont : Les confréries religieuses musulmanes. Adolphe.